# المحاضرة السابعة: أنثروبولوجيا الاتصال .. متى؟ وكيف؟

إن توجُّه أنثروبولوجيا الاتصال من الناحية النظرية بدأ في منتصف ستينيات القرن الماضي؛ إذ جاء كجزء من حركة علمية مناهضة لاختصار الاتصال في الجانب التقناوي والوسائلي والتلغرافي. ، وأدرك الباحثون حينها أهمية الأنساق الثقافية في فهم أنساق الاتصال، مما أدى إلى نشأة توجُّه أنثروبولوجيا الاتصال.

فيما تعدَّدت المقترحات بشأن تاريخ ظهور هذا الفرع؛ ففي الدراسات الإعلامية اللاتينية، أُرجِع تاريخه إلى أعمال الأنثروبولوجي مالينوفسكي ( Malinowski)، عام 1920؛ إذ أطلق على المنهج الإثنوغرافي الذي اعتمد عليه "أنثروبولوجيا الاتصال".

وأرجع آخرون مفهوم "أنثروبولوجيا الاتصال" إلى النصف الثاني من القرن الماضي، وبداية ارتسام طريقه من الناحية الأكاديمية يعود إلى عام 1962 في الولايات المتحدة الأمريكية؛ إذ تأسَّس مجال بحثي جديد في الأنثروبولوجيا الأمريكية اهتم بدراسة الكلام كظاهرة ثقافية فقط.

وكان مقال الأنثروبولوجي هايمز (Hymes) في العام ذاته بشأن "إثنوغرافيا الكلام" ميلادًا نظريًّا لما أصبح يُعرف عام 1964 بـ"أنثروبولوجيا الاتصال"؛ فدراسة الاتصال كظاهرة ثقافية أساسية مشروع بدأت بعض معالمه تتحقَّق في نهاية السبعينيات.

وفي السبعينيات، بدأت العلاقة الواضحة بين الأنثروبولوجيا والاتصال الجماهيري؛ إذ ساعد جيمس دبليو كاري عام 1975 في هذه العملية؛ فقد كتب مقاربة ثقافية للتواصل، وكعالِم اتصالات، كان قادرًا على ربط مفهوم كلاسيكي مثل الطقوس ونظرية جديدة مثل الأنثروبولوجيا الرمزية وتطبيقها على تعريف الاتصال، ومن ذلك الوقت فصاعدًا مُيِّز عرض الإرسال ووجهة نظر طقوس الاتصال.

لكن هذه هي الخطوة الأولى؛ لأن جيمس دبليو كاري اقترح نهجًا هو نظرية، ويمكن اعتبار نهج جيمس دبليو كاري دعوةً للأنثروبولوجيا مساهمة في الاتصال الجماهيري؛ فقد أضاف مزية من خلال إنشاء التمييز على أساس المفاهيم الأنثروبولوجية، وبينما يثبت أن هذا ممكن، يجب عليه المُضي قُدمًا في شرح سبب تبرير ذلك. ومرت محاولة كاري بالتأويل، ومع ذلك، بقي هذا التقليد البحثي داخل الأنثروبولوجيا بلا نظرية يقترحها في مجال كتلة الاتصالات.

ربما لم تكن هذه هي الدراسة الأولى للمفاهيم الأنثروبولوجية، لكنها بالتأكيد كانت مؤثرةً.

كما ركَّز عالِم اتصالات آخر، هو مايكل شودسون عام 1989، على المفهوم الرئيسي الأنثروبولوجي، وهو الثقافة، وطبَّقه على دراسة التلفزيون. ويهتم مايكل شودسون بالتأثير المباشر للأشياء الثقافية، أي إذا ما كان التعرض لرموز معينة، تقود الرسائل في وسائل الإعلام المختلفة، يدفع الناس إلى تغيير طريقة تفكيرهم في العالم أو التصرف فيه.

وبعد ذلك، راجع علماء الأنثروبولوجيا عام 1999 بحثًا أجرته "كارولين مارفن" لإظهار استمرار ذلك الاتصال، وكان يعطي أمثلة على استخدام علماء الاتصال للأنثروبولوجيا، مع التركيز على أحداث وسائل الإعلام، ويركز أيضًا على الأساليب الأنثروبولوجية المُطبَّقة في أبحاث الاتصال، وأخيرًا يُسلِّط الضوء على المفاهيم المُستخدَمة والتي يمكن أن تستخدمها دراسات وسائل الإعلام. ووفقًا لكارولين مارفن، كان التركيز على المحتوى الأنثروبولوجي للنص.

وفي العام ذاته، اتخذت عالِمة التواصل كارولين مارفن منظور "الطقوس" كمنظور علمي قادر على دفع أبحاث الاتصال خطوة إلى الأمام، وجادلت بأن أنثروبولوجيا وسائل الإعلام هي آلية خرافة وطقوس للقومية الأمريكية، وكان علماء الأنثروبولوجيا قادرين على التفكير في العواقب المنطقية لربط الأسطورة والطقوس وكتلة الوسائط، لذلك عُد عملها تبريرًا لهم حيث ربطوا بين الأنثروبولوجيا والاتصال الجماهيري باستخدام المفاهيم الكلاسيكية من دراسة السحر والدين.

**أنثروبولوجيا الاتصال والحضارة**

"إن تاريخ الحضارة هو تاريخ الاتصال." ألبير كامو

الحضارة ما هي إلا مجرد نوع خاص من الثقافة، بمعنى أنها شكل مُعقَّد أو راقٍ من أشكال الثقافة؛ فالحضارة تحمل -بشقَّيها المادي والمعنوي- أوجهًا اتصالية؛ فالمخلفات المادية (التكنولوجية) والمعنوية ما هي إلا اتصال. وعمومًا، يُعرِّف الأنثروبولوجي "الثقافة" على أنها "اتصال"، وإذا كان موضوع علم الاجتماع هو المجتمع في حالة سكونه وحركته، فإن علم الاتصال يدرس المجتمع أفراده وجماعاته في حالة تفاعلهم معًا أو مع الآخر، كما أن الثقافة تنتقل إلى جماعات إنسانية أخرى من خلال وسائل الاتصال المختلفة؛ فالثقافة لا توُجَد إلا بوجود المجتمع، والمجتمع من جهته لا يقوم ويبقى إلا بالثقافة، وتهتم الأنثروبولوجيا باتصال الإنسان بمحيطه، وما يحمله هذا الاتصال من عناصر ثقافية، الأمر الذي مهَّد الطريق لظهور فرع معرفي يُسمَّى بـ"أنثروبولوجيا الاتصال".

قد تكون عبارة الفيلسوف الفرنسي ماتيلار عن ضرورة تحريك حقوق العلوم الإنسانية وتثويرها من كل الاتجاهات لاستدرار المعارف الجديدة وتقديم الإجابات النسبية عن الأسئلة الراهنة؛ قد تكون هذه العبارة ذات انسجامٍ إبستيميّ دقيقٍ مع جوهر حقل "أنثروبولوجيا الاتصال" وكينونته، فلئن كانت المقاربات الكلاسيكية في علم النفس وعلم النفس الاجتماعي تضع ميكانيزمات "الاتصال" كمقدمة لفهم

الثقافة، فإنَّ أنثروبولوجيا الاتصال يعكف على تفسير السلوكيات الثقافية والعادات والتقاليد ضمن الأطر الاتصالية الكبرى، وهو بهذا يتجاوز البعد الوضيفي للاتصال ضمن مُخطَّطات الشانون، ليضع الاتصال ضمن مسار علم الإنسان (الأنثروبولوجي) ومداره.

ويكتسب حقل "أنثروبولوجيا الاتصال" أهميته في رهانه المعرفي ورهانيَّته السياقية، أما مستوى رهانه المعرفي فمُتجسِّد في بحثه العميق بأسئلة الأنسنة من عادات وتقاليد وممارسات ثقافية وفلكلورية من زوايا اتصالية، وأما في مستوى رهانيَّته السياقية فإنها كامنة في اعتباره جزءًا من حالة الإجابة الإنسانية الإبستيمية عن "مقولات العولمة الكونية" و"التقوقع الأيديولوجي" و"خطابات الديماغوجيا"؛ إذ يتنزَّل في عمق الدراسات الثقافية باعتبارها التقصي والتحري في القضايا المعرفية المركزية "للجماعات الهامشية" و"لقضايا الهامش" لعقل العولمة.

ولقد استفاد مجال أنثروبولوجيا الاتصال من مفاهيم "جورج هربيرت ميد"، التي تحدث فيها عن الشكل المتكامل للاتصال كنسق، وعن الاتصال في المجتمع الإنساني بقوله: "إن المثل الأعلى للمجتمع الإنساني هو المثل الذي يُقرِّب الأشخاص بشكل حميمي، والذي يُطوِّر النسق الضروري للاتصال بشكل متكامل؛ فمن أجل تطوير الاتصال لا يلزمنا فقط تبادل أفكار مُجرَّدة، لكن يجب أن نضع أنفسنا مكان الآخر؛ من أجل الاتصال برموز لها دلالة".

وتدرس الأنثروبولوجيا الاتصال من حيث كونه سلوكًا، تصبغه الثقافة بما يلائمها ليُعبِّر عنها، وبذلك تنقل الرسالة في إطار ثقافي؛ فالاتصال يُمثِّل جوهر الثقافة، والعكس بالعكس. كما تهتم الأنثروبولوجيا بالكشف عن كيفية نقل تلك الثقافات وتشكيلها من خلال وسائل الاتصال المختلفة (الصحف والتلفزيون والإنترنت، إلخ)، ويُعَدُّ الأنثروبولوجي ديل هايمز ( Dell Hymes) من أوائل من أطلقوا مصطلح "أنثروبولوجيا الاتصال" عام 1967 على السلوكيات والوضعيات والأشياء الموجودة عند جماعة معينة على أساس أن لها قيمة اتصالية، كما تعرَّض إيف وينكن ( Yves Winkin)، أستاذ أنثروبولوجيا الاتصال، لإسهامات موالية لقضية نشوء أنثروبولوجيا الاتصال، من قبل أبحاث غودنوغ (Goodnough)، وغوفمان (Goffman)، وليفي ستروس ( Strauss) (عمر قبايلي، 2010، ص30). فيما اهتم عالِما الأنثروبولوجيا راي بيردويستل ( Ray birdwistell) وإدوارد تي هول ( Edward T. Hall) بدراسة الميدان التقليدي للاتصال (قراد حسينة، 2008، ص24).

**المفاهيم الأنثروبولوجية المُستخدَمة في الاتصال:**

يستخدم علماء الأنثروبولوجيا مفاهيم مُطورة، ولكن ليس كنظرية لوسائل الإعلام الجماهيرية في الأنثروبولوجيا، والمفاهيم تظهر مع مزيد من التردُّد هو (التثاقف والانتشار والطقوس)؛ إذ كان علماء

الأنثروبولوجيا الأوائل يستخدمون مفهوم التواصل والمصطلحات التأويلية والفكر الأوروبي والمفاهيم الكلاسيكية بوضوح.

وفي الأدبيات الأنثروبولوجية، يرتبط مفهوم الاستيعاب بكلٍّ من التثاقف والانتشار؛ فيقول ريتشارد طومسون إن الاستيعاب هو العملية التي يتم من خلالها دخول الأفراد من ثقافة أجنبية أو أقلية إلى المواقف الاجتماعية للثقافة القياسية أو المهيمنة التي يقيمون فيها. ومع أن الاستيعاب عملية يمر بها الأفراد، فإنها دُرِست في كثير من الأحيان في الجوانب الاجتماعية مع التركيز على معدلات استيعاب المهاجرين والأقليات.

ويقول ريتشارد طومسون إن التثاقف -من وجهة نظر الاستيعاب- يُعرَّف بأنه "العملية التي يتعلم الأفراد من الثقافات الأجنبية أو الأقليات بواسطتها لغة الثقافة القياسية أو المهيمنة التي يقيمون فيها وعاداتها وقيمها، والتثاقف هو عملية ثقافية، في حين أن الاستيعاب هو عملية اجتماعية"

**الطرق المنهجية المُستخدَمة في "أنثروبولوجيا الاتصال":**

إذا كان علماء الاتصال يستخدمون المفاهيم الأنثروبولوجية، فليس من المُستغرَب أنهم يستخدمون أيضًا الأساليب الأنثروبولوجية؛ فمن قبل كان عالِم الأنثروبولوجيا مالينوفسكي في عشرينيات القرن الماضي -على سبيل المثال- يعتمد على مصادر مثل أوصاف المسافرين أو التقارير الرسمية أو الكتابات التبشيرية، ومنذ ب. مالينوفسكي، فالملاحظة هي نشاط العمل الميداني الرئيسي في مجال الأنثروبولوجيا، وهذا يعني أن المصدر الأساسي للمعلومات هو خبرة الباحث الخاصة؛ لأن عالم الأنثروبولوجيا يذهب إلى الثقافة ويعيش هناك لفترة من الوقت.

ويمكن أن تكون الملاحظة مباشرةً؛ فيحضر عالم الإثنوغرافيا لتسجيل بعض النشاط، أو المشارك؛ فيكون عالم الأنثروبولوجيا مشاركًا بنشاط في النشاط الذي تحت الملاحظة، ويتحدث علماء الأنثروبولوجيا أيضًا مع الناس، ويرسمون مُخطَّطات القرابة، ويُجرون البحوث الكمِّية في المناطق ذات التجمعات السكانية الكبيرة؛ ففي الثمانينيات والتسعينيات، لم تكن أساليب الأنثروبولوجيا مختلفةً عن العلوم الاجتماعية الأخرى، ومع ذلك فإن مراقبة العمل الميداني هي عنصر كلاسيكي في البحث الإثنوغرافي

وعلى الرغم من النظرة التقليدية إلى علم الأنثروبولوجيا، والتي وصمته طويلًا بعلم المجتمعات البدائية والمُحتلِّين، تغيرت هذه النظرة بمرور الوقت وبظهور التطورات التكنولوجية وما صاحبها من قضايا وظواهر جديدة تستحق الدراسة؛ إذ رأى العلماء والباحثون ضرورة إشراك هذا العلم في مجالات مختلفة لتحقيق الاستفادة القصوى منه، فظهرت العديد من الميادين والتفرُّعات المختلفة، وكأن المنهجية الأنثروبولوجية باقترانها بعلوم وتخصصات أخرى تنتج عنها مجالات وفروع تستطيع أن تصطفَّ خلف الفروع والتخصصات الأنثروبولوجية المختلفة، فظهرت فروع وميادين في تخصصات مختلفة، منها:

الأنثروبولوجيا الرقمية والاتصالية والإعلامية، وأنثروبولوجيا المرأة، وأنثروبولوجيا الطعام، وأنثروبولوجيا الجسد، وغيرها.

كما أن العلاقة بين الاتصال والأنثروبولوجيا مُوغِلة في القدم؛ إذ توجد علاقة بين الاتصال والثقافة، ومن ثم المجتمع ككُلٍّ. وعبر دراسة الأنثروبولوجيا للسلوكيات والممارسات الثقافية من زوايا اتصالية، استطاعت أن تخلق فرعًا مستقلًّا من فروع علم الأنثروبولوجي، وهو فرع "أنثروبولوجيا الاتصال" الذي يبحث في السلوكيات والأفعال والممارسات الثقافية ووسائل الاتصال المختلفة في علاقتها بالثقافة.